يوميات

جميل عطية ابراهيم

كان اخي الاكبر هو الذي اقترح بناء مقبرة خاصة بالاسرة ، فاشترى الارض، وبدأ في اعداد ترتيبات البناء . وفي البداية اختلفت الاسرة حول هذه الفكرة ، بعضهم تحمس وبعضهم تشاءم ، ووجدتني من المتحمسين وقررت ان أحيط المقبرة بالاشجار وأحواض الورد ، وأن أبني نصبا عاليا ، أضع عاليه تمثالا ، وكنت أعلم أن أخوتي سوف يعترضون على هذه الكماليات ، وقررت أن أسدد ثمنها بمفردي . فالمقبرة بدون واجهة رخامية وأشجار عالية لا تعد مقبرة .

وتجاوز ثمن الارض السبعمائة جنيه ، وقدر المقاول تكاليف البناء بسبعمائة أخرى ، وأخبرني صديق له خبرة بالحدائق واستنبات الزهور ، انني في حاجة الى مائة وخمسين جنيها لتجميل مدخل المقبرة والفضاء المحيط بها .

وتسلم أخي الاكبر الارض ، وقام بتسجيل العقد في البطريركية وفقا لقواعد امتلاك ارض المقابر ، وسدد الثمن نقدا نيابة عنا ، وأعد الرسومات الهندسية . وتعهد والداي بسداد نصيبهما من الثمن أيضا ، وباعت والدتي نصف مصاغها الذهبي . أما أختي الصغرى فقد حزنت حزنا عظيما .

وبدأت أحاديثنا تدور حول هذه المقبرة ، وكان أخي الاوسط يستعد للزواج فبدأت عائلة خطيبته أيضا تشاركنا الحديث حول المقبرة وتكاليف بنائها ، فقد كان من مفاخرنا أن أسرتي تسعى لامتلاك مقبرة خاصة . واسترجعت الاسرة حكايات مؤسفة عن أثرياء من العائلة ماتوا فجأة دون تحسب لهذا اليوم ، فدفنوا في مقابر الصدقة ، ففي العام الماضي رفض « حنا » وهو من أقاربنا دفن حرم صديقه « مجلع » في مقبرته ، وتهرب من وعده وادعى انه فقد مفتاح المقبرة ساعة الدفن ، ولكنه صرح لوالدي بعد ذلك ، بأنه يتشاءم من فتح المقبرة في بداية كل عام ، فالمقبرة عندما تفتح في بداية العام لا تكتفي بجثة واحدة .

وزعمت والدتي أن « حنا » رجل خسيس ، فعلى الرغم من أنه يقوم بجمع التبرعات للكنيسة ، وانه يعاون الاب سرجيوس ويصحبه عند زيارة المرضى ، ويحمل له البخور ، ويؤدي الطقوس ، فهو رجل نذل .

وتوقف حنا عن زيارتنا، ولكن أخي الاكبر كان يتصل به سرا ، لانهاء أمور المقبرة .

وكان حنا يقول لاخي أن أهم شيء في هذه الحياة، هو تأمين بيت الاخرة . وتعلمت منه اداب الحديث عن المقبرة ، فعندما يتحدث أبي ، يطلق على المقبرة «التربة»، ويقرنها دائما بكلمة محببة ، كأن يقول موضع الراحة الابدية ، أو عندما يستريح العبد يشقى ، ويلبي نداء ربه ، ولا ينسى أن يقول لوالدي عدة مرات بعد عمر طويل أو عندما يسلم الانسان الوديعة الى خالقها لا بد له من تربة . وكان أبي على النقيض من والدتي ، يتفهم مشاعر حنا ، ويتعاطف معه . ويقول أن الرجل قد أدى واجبه ، وفتح مقبرة خاصة بأطهار الكنيسة للمرحومة . واشتكت والدتي حنا للاب سرجيوس ، ولكنه طيب خاطرها ، وقال لها ، ان الانسان عاجز عن مواجهة الشر، فالخطيئة الاولى في دمه ، وان المسيح قد جاء ليحمل عنا خطايانا ويخلصنا . وظل حنا يتودد الى والدتي بعد كل صلاة ، ويقول لها في ود ، السماح يا مقدسة ، أنا أخطأت ورب الكنيسة رب سماح ومحبة ، فتشيح بوجهها عنه ، وترد عليه بكلمة قاسية . وحنا يمت بصلة قربى لوالدتي ، واخبرتنا ذات مرة ، أنه كان يود الزواج منها ، ولكنها رفضته ، وفضلت الزواج من أبي .

وعندما لم يؤيد الاب سرجيوس والدتي في هجومها على حنا ، بدأت تنقده علانية ، وبدأت تحاسبه على نذور الكنيسة ، وتقيد التبرعات في دفتر خاص .

وذات مرة ادعت ان الاب سرجيوس يدخن السجائر بعد الصلاة ، وان زوجته تذهب الى شاطىء العجمي وترتدي لباس البحر فصدمت مشاعرنا . وانبرى أخي الاكبر مدافعا عن الكاهن ، وطلب من أبي أن يتدخل في الامر ، ولكنها قالت أنها لن تكف عن مهاجمة حنا . وانها على استعداد كي تسدد نفقات المقبرة بمفردها ، وانها ليست في حاجة الى معاونة أخي أو حنا في بناء المقبرة ، وباعت بقية مصاغها ورصدت النقود لاستكمالها .

وكان يضايق اختي الصغرى تدخل والدتي في شئون المقبرة ومهاجمة حنا وكاهن الكنيسة ، وانها باعت بقية مصاغها ، ولكن حماس والدتي لامتلاك مقبرة كان قد ملك مشاعرها ، فكظمت أختي غضبها .

وأسهم كل منا في تكاليف البناء فيما عدا أختي المتزوجة، فقد رفض أبي أن يسهم زوجها معنا ، وطلب أبي أن يكتب اسمه على قطعة رخام مصحوبا بكلمة من الكتاب المقدس ، وكانت أختي الصغرى ترى أن والدتي قد بددت مصاغها ونقودها من أجل هذه المقبرة ، أما أختي المتزوجة فكفت عن زيارتنا ومنعت أطفالها الصغار عنا ، فحزن أبي عندما حرم من رؤية أحفاده .

القاهرة